

جهود عبد الرحمن حاج صالح في مجال اللسانيات المعاصرة

د. عبد القادر بوزيان

جامعة حسية بن بوعلي – الشلف (الجزائر)

BOUZIAEK@GMAIL.COM

تاريخ النشر: 2019/12/01

تاريخ الإيداع: 2018/04/23

المخلص:

تسهم هذه الدراسة في إلقاء الضوء على جهود عالم من أعلام الجزائر الطبية المعاصرين الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في مجال الفكر اللساني الذي تميز به من خلال مجلة اللسانيات، ومكانته العلمية وجهوده في التعريف بالتراث اللغوي الأصيل للنحاة العرب القدماء، ومدى إعجابه بأفكارهم، وتبنيه لبعض مصطلحاتهم، وتوضيحه لمبادئ النظرية الخليلية التي سعى لتطويرها واستثماره، وترقية البحث اللغوي بغية تعريف القارئ بأهم آراءه وتحديد قيمتها العلمية والمعرفية، وتبيين أهميتها. وإبراز ما وصل إليه تطور البحث اللغوي الحديث في الجامعة الجزائرية.

ولتحقيق ذلك يتطلب الإجابة على الأسئلة الآتية:

من هو الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح؟ وفيما تكمن أهمية النظرية الخليلية الحديثة في مجال المعرفة وترقية البحث اللغوي اللساني، وما هي انعكاساته على البحث اللغوي في الجزائر والوطن العربي؟

Abstract:

This study sheds light on the efforts of a world of modern Algerian scientists Dr. Abdel Rahman Haj Saleh in the field of linguistic thought, which distinguished him through the Journal of Linguistics, his scientific position and his efforts in introducing the authentic linguistic heritage of the ancient Arab grammarians, the extent of his admiration for their ideas, and their adoption. Some of their terms, and clarification of the principles of the theory of Khalili, which he sought to develop and invest, and the promotion of linguistic research in order to familiarize the reader with his most important views and determine their scientific and cognitive value, and show their importance. Highlighting the development of modern linguistic research at the Algerian University.

To achieve this, the following questions must be answered:

Who is Dr. Abdul Rahman Haj Saleh? While the importance of the modern Khalili theory lies in the field of knowledge and promotion of linguistic research, and what are its implications for linguistic research in Algeria and the Arab world?

المقال:

مقدمة:

لكل أمة من الأمم تراث يميزها عن غيرها، تتواصل به بين ماضيها وحاضرها، ولا يتم لها ذلك إلا بالحفاظ عليه لكي تضمن بقاءها واستمرارها وتأثيرها، والمؤلفات اللغوية والأدبية جزء من هذا التراث والجزائر تزخر بعلمائها الذين تميزوا باجتهاداتهم العلمية المعرفية ومجامعهم الفكرية، وراحوا يتبارون ويتنافسون في شتى أصناف العلوم، أمثال: ومحمد بن العباس التلمساني (ت 871هـ)، ومحمد بن عيسى المغيلي، الشهير بالجلّاب، التلمساني (ت 875هـ)، وعبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ)، يحيى بن عبد المعطي الزواوي، صاحب أول ألفية في النحو والصرف؛ ومنهم: محمد بن يوسف أطفيش، صاحب التأليف اللغوية الكثيرة؛ ومنهم: محمد البشير الإبراهيمي،

الفقيه اللغوي؛ ومنهم موسى الأحمد، العروضي البار؛ ومنهم الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، اللساني الكبير. وقد خلف علماء اللغة الجزائريون مؤلفات لا يستغني عنها طلاب العلم والمعرفة. لا زال التاريخ يشهد علمها، وتداولها المحافل الوطنية والعالمية دراسة وبحثاً وتنقيباً على هذا الإرث الثمين المعبر عن هويتنا العربية وشخصيتنا الجزائرية. وإن كان كثير من تلك المؤلفات المفيدة ما يزال في حكم الضائع من التراث الثقافي الجزائري.

غير أن تلك الجهود لم تنل بعد ما تستحقه من تعريف وتقييم، وتمحيص وتثمين وتحقيق ونشر. وهذا ما دفعني إلى إبراز الجهود اللغوية للعلامة عبد الرحمن الحاج صالح، وبيان قيمتها. وذلك حتى يعرف طلابنا أن أباءهم وأجدادهم لم يتخلّفوا عن طلب العلم وخدمة اللغة العربية لغة القرآن الكريم بامتياز، ولم يقصّروا في خوض غمار العلم والغوص في أعماقه والكشف عن مكنوناته وإخراج لآلئه وجواهره الثمينة والمهمة ليستفيد منها الأبناء في حياتهم.

و الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح - رحمه الله - من هؤلاء العلماء العاملين في مجال الفكر اللساني في الجزائر وفي الوطن العربي. له اطلاع واسع على الفكر اللغوي عند العرب وعند الغربيين، فهو مزدوج اللغة، يشهد له طلابه على تمكنه وغزارة علمه في حقل اللسانيات الحديثة. قال أحد طلابه وهو يتحدث عن الآلات التي أهداها علم الفيزياء إلى علم اللغة: «إقراراً بالحق، ومن باب عزو الفضل إلى ذويه يحسن بنا هاهنا أن ننوه بالبحوث الصوتية المخبرية التي اضطلع بها أستاذنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، وعرض فيها على محك هذه الآلات ما جاء في كتب علمائنا الأقدمين، ولاسيما ما رواه سيبويه (ت180هـ) عن شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) في مخارج الحروف وصفاتها، فتبين له أن كثيراً من آرائهم بلغت من الحصافة، وأن غرائزهم أوتيت من الرهافة ما جعل نتائجهم تقارب النتائج التي توصلت إليها الآلات»⁽¹⁾.

ويعترف به أقرانه علماء المشرق والمغرب العربي، ويقر له أعداءه بهذا الصنيع المعرفي. يُجل العلماء العرب السابقين ويعجب بآرائهم وأفكارهم.

لقد تبين له أن الخليل بن أحمد صاحب معجم العين - وهو المؤسس الحقيقي للنظرية اللغوية العربية - قد أدرك بفكره النير أن اللغة تتألف من مجموع المفردات، والمفردات إنما تتألف من أجزاء، وهذه الأجزاء هي الحروف، فلا بد إذن لمن يريد أن يدرس اللغة، ويتفهم طبيعتها أن يبدأ بدراسة الحروف. والحروف ينتجها جهاز النطق، وجهاز النطق عند الإنسان واحد. فكان ترتيبه للحروف بحسب مخارجها من الحلق إلى الشفتين ترتيباً مبنياً على أساس علمي واضح. « فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها، الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم»⁽²⁾.

وبدل على مثل هذه الفكرة في ذهنه ما حكاه الليث بن المظفر عنه قال: « كنت أسير إلى الخليل، فقال لي يوما لو أن إنسانا قصد وألف حروف ألف وباء وطاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب، فتهياً له أصل لا يخرج عنه شيء منه البتة. قال: فقلت له وكيف يكون ذلك ؟ قال يؤلفه على الثلاثي والرباعي والخماسي الخ...»⁽³⁾.

حياة العلامة عبد الرحمن حاج صالح:

العلامة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أستاذ وباحث وعالم في خدمة اللغة العربية أحد أعلام الجزائر المعاصرة، وقامة من القامات العلمية المغاربية والعربية التي شهد لها المحفل العلمي العالمي، والعربي الإسلامي بالتميز، والتفوق، والنشاط، والتجديد في ميدان اللسانيات؛ رئيس المجمع الجزائري للغة العربية. كان يلقب بـ"أبي اللسانيات" و"الرائد في لغة الضاد"، شارك عبد الرحمن حاج صالح في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، فالتحق بحزب الشعب الجزائري بعمر لا يتجاوز 15 عاما. كرّس حياته في طلب العلم والبحث في رفوف المكتبات، والتنقيب عن المعرفة بين صفوف الكتب وتقييدها في وريقات، في حقل اللغة العربية، التي كان يحبها ويتلذذ في دراسته ومطالعته للكتب التراثية القديمة، فاكشف أهمية هذا الكنز اللغوي الثمين العربي وراح يفتش في أعماقه وخاصة ما ترك أوائل النحاة، أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه صاحب "الكتاب".

قضى عبد الرحمن الحاج صالح حياته أستاذا وباحثا وعاشقا للغة العربية، حتى تولد عنده فكرة "الذخيرة اللغوية العربية" وهو "مشروع خاص بعلم اللسانيات المعاصرة"، من مواليد 8 يوليو/تموز 1927م، بولاية وهران، انحدر من عائلة نزحت من قلعة بني راشد المشهورة إلى وهران في بداية القرن التاسع عشر، تلقى تعليما مزدوجا إبان الاحتلال الفرنسي للبلاد باللغتين: العربية في إحدى المدارس الحرة الجزائرية التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. والفرنسية في المدارس الحكومية الفرنسية. اختار حاج صالح دراسة الطب، وتوجّه عام 1954 إلى جمهورية مصر العربية ليكمل دراسته في جراحة الأعصاب، وكان وقتها يتردد على جامع الأزهر، ويحضر بعض دروس اللغة العربية التي كانت تقام في المساجد، وتقدم من طرف علماء وأساتذة أجلاء، مما جعله يتذوق طعم اللغة العربية ويتمكن من ناصيتها، ويعجب بها ويحبها، ومن أحب شيئا أعطاه ما يملك.

ثم وجّه وجهته نحو فرنسا ليلتحق بجامعة بوردو، وكان صاحبنا يجيد اللغة الفرنسية التي ساعته على الإطلاع على أفكار اللسانيين الفرنسيين والغربيين أمثال دو سيسور، ونعوم شومسكي وغيرهم... وما أنتجوه في هذا المجال المعرفي الحديث.

بعدها ولى وجهته نحو المغرب العربي الشقيق، فاستقر به المقام والتحق بكلية الآداب بجامعة الرباط، التي أصبح فيها أستاذا ومدرسا لعلم اللسانيات الحديث، ولم يقعه هذا العمل على طلب العلم فراح يدرس في كلية

الحقوق حتى تحصل منها على دبلوم العلوم السياسية من كلية الرباط، ولم يقنع بهذه العلوم ويظن أنه وصل كما يظن بعض أشباه طلاب العلم عندا وفي جامعتنا، يقول المثل: (كل إناء يضيّق بما فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع كلما زدت فيه)، فراح يطلب علم الرياضيات - تماشيا ما فعل الخليل بن أحمد في طريقة طلبه للعلم - فالتحق بكلية العلوم بالرباط في المغرب العربي، ونال منها شهادة محصله للعلم.

وفي عام 1968 أصبح الدكتور عبد الرحمن حاج صالح أستاذًا زائرا بجامعة فلوريدا الأميركية، وفي عام 1979 تحصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية واللسانيات من جامعة السوربون بفرنسا، ثم ترجمت أعماله إلى اللغة العربية.

الوظائف والمسؤوليات:

بعد ما أخذت الجزائر استقلالها 1962م، عاد إليها أبناءها البررة وعاد الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح والتحق بالجامعة عام 1964م، وأصبح رئيسا لقسم اللغة العربية وقسم اللسانيات في جامعة الجزائر، ثم انتخب عميدا لكلية الآداب حتى عام 1968.

وهذا ممّا جعله يصرف فكره نحو علم اللسانيات، حيث أنشأ عام 1980م، فرع ماجستير علوم اللسان، قبل أن يتم تعيينه عضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم انتخب عضوا عاملا به عام 2003م.

وكان عضوا بارزا في كل من مجمع اللغة العربية دمشق (1978م)، وفي مجمع اللغة العربية بغداد (1980م)، وفي مجمع اللغة العربية عمان (1984م)، كما انتخب عضوا في عدة مجالس علمية دولية.

وفي عام (2000م) عُيّن عبد الرحمن حاج صالح رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية، إضافة إلى عمله أستاذا وباحثا في جامعة الجزائر، كما شغل أيضا منصب رئيس اللجنة الوطنية لإصلاح المنظومة التربوية في الجزائر، وترأس مشروع الذخيرة اللغوية العربية الذي أسسه.

ومن أبرز أعمال الباحث الجزائري، تأسيسه للدرس اللساني في الجامعة الجزائرية، ومشروع الذخيرة اللغوية العربية، الذي أسسه بفضل أبحاثه عن طريق البرمجة الحاسوبية، وكان أول عالم عربي يدعو إلى ذلك المشروع، كما كان أول الداعين إلى إنشاء غوغل عربي.

وكان عبد الرحمن حاج صالح يدعو دائما إلى تعدد اللغات عند الفرد، معتبرا أن وحيد اللغة مسكين ومعاق.

الجوائز والأوسمة:

تحصل عبد الرحمن حاج صالح على العديد من الجوائز، من بينها "جائزة الملك فيصل" عام (2010م)، تقديراً لجهوده العلمية المتميزة في تحليله النظرية الخليلية النحوية وعلاقتها بالدراسات اللسانية المعاصرة، ودفاعه عن أصالة النحو العربي، وجهوده البارزة في حركة التعريب.

جهود عبد الرحمن حاج صالح العلمية

الحبة دليل على الشعر والبصرة دليل على البعير هكذا قالت العرب قديماً، فقد ترك عبد الرحمن حاج صالح عشرات الأبحاث والدراسات في اللغة واللسانيات ومعاجم علوم اللسان نُشرت في مختلف المجالات العلمية المتخصصة باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

وألّف وشارك في تأليف عدّة كتب في علوم اللغة العربية واللسانيات العامة، منها معجم علوم اللسان، وبحوث ودراسات في علوم اللسان، والسماع اللغويّ عند العرب ومفهوم الفصاحة، وعلم اللسان العربيّ وعلم اللسان العام (بالفرنسية في مجلدين)، والنظرية الخليلية الحديثة. مفاهيمها الأساسية، ومنطق العرب في علوم اللسان. ومحاضرات ومقالات لغوية نشرها بعنوان (مدخل إلى علم اللسان الحديث)، في مجلة اللسانيات وفي أعدادها الصادرة بين سنة 1971 وسنة 1974 بمعهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر تحت إشرافه.

الوفاة:

توفي عبد الرحمن حاج صالح يوم 5 مارس/آذار 2017 بمستشفى عين النعجة في العاصمة الجزائرية عن عمر ناهز 90 عاماً. رحمه الله وأدخله فسيح جناته.

وقد نعاه الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة في رسالة أثنى فيها على الرجل، واعتبره قامة في علوم اللغة واللسانيات، وأنه أمضى جل عمره منقياً وباحثاً في لغة الضاد.

المصطلح اللساني عند الخليل:

كان الخليل إذا أراد أن يحدد مرتكز الصوت أو مخرجه فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو: أْب، أْخ، أْغ، واستطاع بهذه الطريقة البسيطة أن يحصل على الكثير من النتائج العلمية الدقيقة التي انتهى إليها المحدثون بالاستعانة بتطور العلم والآلة.

يقول الدكتور مهدي المخزومي: «ومن الطريف حقا أن نرى مصطلحات علم الأصوات الحديث تتفق أكثرها مع المصطلحات التي وضعها الخليل، وهي قريبة منها كل القرب، بل كان كثير منها يشير إلى أنها مصطلحات الخليل ترجمت ترجمة تكاد تكون (حرفية).

فمصطلح (المجهور) يقابله بالإنكليزية مثلا مصطلح voiced

ومصطلح (المهموس) يقابله مصطلح Voiceless أو Unvoiced

ومصطلح (الشديد) يقابله مصطلح Plosive أو Stop

ومصطلح (الرخو) يقابله مصطلح Fricative أو Continuant

ومصطلح (المكرر) وهو الراء يقابله مصطلح Rolled أو Trilled⁽⁴⁾.

هذا السبق في وضع المصطلحات العلمية، ووصف الحروف وصفا دقيقا وتحديد مخارجها جعل الدكتور عبد الرحمن حاج صالح يعجب بفكر الخليل وبآراء من سار على نهجه من القدماء، فظهر إعجابه بهم في محاضراته وفي المقالات اللغوية التي نشرها بعنوان (مدخل إلى علم اللسان الحديث)، في مجلة اللسانيات وفي أعدادها الصادرة بين سنة 1971 وسنة 1974 بمعهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر تحت إشرافه. وفي النظرية الخليلية التي طورها فيما بعد⁽⁵⁾. وظهر هذا الإعجاب في عدة صور منها:

أنه تبنى بعض مصطلحاتهم كمصطلح (علم اللسان) الذي فضله على المصطلحات التي ظهرت عند العرب في العصر الحديث. فهم حين اتصلوا بالدراسات اللغوية الغربية أطلقوا عليها أول الأمر «فقه اللغة» لما تبادر إلى أذهانهم من المناسبة بين المدلول لكلمة «فقه» (العلم بالشيء والتعمق في فهمه)، وبين ما هو مطلوب في ال: linguistics إذ هو بحث في أسرار اللسان.

ثم «أطلقوا عليها طائفة من الأسماء مثل علم اللغة، الألسنية، اللسانيات، اللسنيات، اللغويات الحديثة، الدراسات اللغوية»⁽⁶⁾.

المصطلح اللساني في فكر الدكتور عبد الرحمن حاج صالح:

لا يُخفي الدكتور عبد الرحمن حاج صالح إعجابه الكبير بالنحاة العرب القدامى في صناعة اللغة العربية وضبطها وتقنينها وتقعيدها وإغنائها كما فعل الخليل بن أحمد (175هـ) في معجم العين (استعمل نظرية التباديل والتوافيق الرياضية، إذ بناه على تقليب كل الصيغ الأصلية، بحيث تندرج فيه مع كل كلمة الكلمات الأخرى التي تجمع حروفها وتختلف في ترتيبها بتقديم بعض منها على بعض.

ووطد ذلك تلميذه سيبويه (180هـ) في الكتاب، حيث ردّ ذلك إلى ثلاثة جوانب، أولاهما: ذوق أصوات الحروف عن طريق فتح الفم بألف مهموزة يلها الحرف المذاق ساكنا، فيقال في الباء أب وفي التاء أْتُ، وهلم جرا⁽⁷⁾. وبذلك يتضح صوت الحرف بالوقوف عليه ساكنا والمكث عنده قليلا، بخلاف ما لو وُصل بحرف بعده فإننا لا نتمكن من إشباع الصوت، إذ نتهياً للنطق بصوت الحرف التالي بعده.

وثاني هذه الجوانب وصف الأجراس الصوتية للحروف من همس وجهر وشدة ورخاوة واستعلاء واستفال، مما يتناثر في كتاب سيبويه. وجعله ذلك يقف عند أصوات الحركات وما بداخلها من إمالة ورؤم⁽⁸⁾، وإشمام⁽⁹⁾، وإمالة.

وأما الجانب الثالث: فهو ما يحدث للصوت في بنية الكلمة من تغيير يفضي إلى القلب أو الحذف أو الإعلال أو الإبدال أو الإدغام، وقد عرض على هذا الجانب مادة اللغة عرضا تدافعت سيوله وأمواجه تدافعا عند سيبويه. وجعله عمق نظره في هذه الجوانب الصوتية وخاصة الجانب الثاني يحاول أن يصوغ شكل الأصوات صياغة دقيقة، مما جعله يدخل على النقط أو الإعجام علامات للروم والإشمام والتشديد والهمزة المتصلة والمنقطعة⁽¹⁰⁾.

وكان أبو عثمان المازني (ت249هـ) عالما لغويا يُدرّس لطلابه كتاب سيبويه، وصنف حوله تعليقات وشروحا، منها تفاسير كطتاب سيبويه، والديباج في جوامع كتاب سيبويه، وألف في علل النحو كتابا، وخص التصريف بكتاب شرحه ابن جني سماه "المنصف".

وصنع أبو علي الفارسي (ت377هـ) كتاب الإيضاح والتكملة، قال عنه أبو حيان: «أبو علي أشدّ تفردا بالكتاب (كتاب سيبويه)، وأشدّ إكبابا عليه وأبعد من كل ما عداه من علم الكوفيين»⁽¹¹⁾. وكان عقل أبي علي من الخصب بحيث ملأ نفس ابن جني (ت392هـ) تلميذه الذي كان يكثر من ذكر آرائه في كتابه الخصائص وغيره.

ويعتبر عبد الرحمن حاج صالح نفسه من المنتسبين إلى النظرية الخليلية والمدافعين عنها. فأولئك يتحرون الدقة العلمية ولا يميلون في الوصول إلى الحقائق العلمية إلى ما يمليه عليهم الهوى.

وهذه النظرية الخليلية الحديثة ظهرت سنة 1979 م، في أطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس والتي كانت بعنوانها: linguistique arabe et linguistique : générale essai de méthodologie et d'épistémologie du ilm al- Arrabiyya Thèse dactylographiée Parie Sorbonne 1979

وقد أعاد صياغتها الدكتور عبد الرحمن حاج صالح في إطار منطقي رياضي حديث. وتدعى اليوم النظرية الخليلية الحديثة، (La Théorie nè- Khalilienne)، ويستثمرها فريق من الباحثين في مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية بالجزائر.

تسمح هذه النظرية بتصور نظام تحليل صرفي تفريعي، وتحليل تركيبى، يركز على ما يسمى بالحدود الإجرائية ومن مفاهيمها الكبرى ما يأتي:

1- مفهوم المدونة المفتوحة : أن المعطيات التي يتحصل عليها اللغوي لا تختلف « إطلاقاً عن المعطيات التي يتحصل عليها العالم البيولوجي أو الفيزيائي، ففي جميع الحالات تصح المعطيات بكونها قابلة للتحقيق بالرجوع إلى الواقع.

2 - إقامة الفرق بين البنية النحوية وبين وضع اللغة (الكود) من جهة وبين استعمال المستعملين لهما في أفعال خطابية معينة من جهة أخرى.

3 - مفهوم البنية في هذه النظرية: يتجاوز مفهوم البنية في المذهب البنوي الذي ظهر بعد دو سوسير: فان البنية هاهنا هي نتيجة لترتيب بين الفئة والترتيب (بين أفراد جنس ونظرائها من أجناس أخرى حسب تعبير القدامى).

تقسم هذه النظرية اللغة العربية إلى ثلاثة مستويات:

- مستوى أدنى هو الكلمة، وتتصل بالأصل (الجزر) والصيغة (الوزن).
- مستوى وسيط هو الوحدة المعجمية (la lexie) وهي إما اسمية (nominale) نحو " كتاب سيبويه" لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة الكلمة الواحدة وهو رأي سيبويه.

إما فعلية (verbale) : نحو (كتبت) لاتصال الضمير بالفعل وتعذر انعزاله عنه (insécable).

مستوى أعلى هو الوحدة التركيبية (la tectonie): ويشمل الجملتين معاً الاسمية والفعلية.

ولهذا نجده يبادر إلى الدفاع عنهم وتفنيده ما نقله جورج موانان عن بعض المستشرقين من أن النحاة العرب يجعلون من العربية أم اللغات وأنها لغة أهل « الجنة بل لغة الله». يقول: «أما القول الأول والثاني فما رأينا أحداً من النحاة الأولين الحقيقيين المجتهدين يقوله أو يجزم به بل وجدناه عند بعض المؤرخين والمفسرين ممن كان يجمع كل ما يسمعه بدون أي نقد مثل: (ابن اسحاق) فاعتمدوا الأساطير الفلكلورية التي كان يروجها القصاص.

أما النحاة واللغويون فكانوا يمسكون عن ذكر مثل هذه الأشياء وقصارى ما قال البعض منهم هو أن أول من فتح لسانه بالعربية المبينة (إسماعيل بن إبراهيم الخليل)، والمراد بالمبينة هذه التي نزل بها القرآن الكريم، أما

عربية القبائل البائدة مثل (جرهم)، فكانوا يقولون إنها عربية أخرى غير ما نتكلم به في عصرنا هذا. أما القول الثالث فهو شنيع وأشنع من هذا أن ينسب إلى علماء العرب⁽¹²⁾. ويزيد على ذلك أن للعرب فضلا على الأوروبيين من ذلك أن المحدثين من الغربيين «حكموا على العربية بأن ليس لكلماتها أصول في اصطلاحهم.

الأصل = الجذر (racine , root , wurzel) مع أن هذا المفهوم نفسه قد أخذوه عن العرب عند اطلاعهم على ما ترجم في القرن 16 من كتب النحو قبل أن يطلعوا على ما يشبه ذلك في نظرية الهند، وينقل قولاً لجورج مونان (Georges Mounin) يرى فيه أن اللسانيات «نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد أو في سنة 1816 مع بوب (Bopp)، أو في سنة 1916 مع دي سوسور أو في سنة 1926 مع تروباتسكوي (Troubetzkoy) أو في سنة 1956 مع تشومسكي»⁽¹³⁾.

ويلحق عليه بقوله: «إن هذا القول لوجيه جدا ولا ينقصه إلا نظرة الباحث الذي اطلع على ما أنتجه العلماء العرب القدامى في هذا الميدان إذ ربما تفضي نظرتهم إلى اللسانيات واطلاعه على علوم العربية إلى أن يجعل مبدأ انطلاق الدراسة العلمية للسان في القرن الثاني للهجرة وبالأصح في فترة ما بين 100 و 175 بعد الهجرة) و 175 هي سنة وفاة الخليل بن أحمد»⁽¹⁴⁾.

ولقد فضل العلامة عبد الرحمن الحاج صالح كلمة (اللسان) على لفظة (اللغة) لأن «لفظة اللغة كانت تطلق عند النحاة واللغويين على عدة معان زيادة على ما يفهم من تحديد ابن جني لها وهو اللسان بوجه عام»⁽¹⁵⁾.

ولأن «المفهوم العام الذي عرف للفظ اللغة ما عرف في الحقيقة إلا بعد نهاية القرن الثاني الهجري، وأن الأصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآن الكريم (لا توجد فيه كلمة أخرى لهذا المدلول غير اللسان»⁽¹⁶⁾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ سورة إبراهيم الآية 4.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ سورة النحل الآية 103.

وفضل مصطلح (علم اللسان) على غيره لان النحاة وغيرهم من العلماء العرب يطلقون غالبا على مفهوم الدراسة العلمية لظاهرة اللسان بصفة عامة لفظ «علم اللسان». يقول أبو نصر الفارابي في كتاب "إحصاء العلوم": «علم اللسان في الجملة ضربان أحدهما حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وعلم ما يدل عليه شيء منها، والثاني علم قوانين تلك الألفاظ»⁽¹⁷⁾. ويبرر صلاحية هذا المصطلح بقوله: «وهناك شيء آخر أيضا يثبت اعتقادنا بصلاحية هذا اللفظ للدلالة على علم اللسان الحديث وذلك هو الترجمة اللاتينية لكتاب إحصاء العلوم التي قام بها Cremonensi GIRARDO في القرن الثاني عشر الميلادي، فقد جاءت فيها هذه العبارة lingue scientia مقابلة للفظ علم اللسان، وقد عرفنا أن هذه العبارة هي التي يحد بها الآن مضمون ال linguistics في جميع الكتب التي تعالج هذه المادة وهي (the science of language) وما يمثلها في اللغات الأوروبية الأخرى. ثم إن هذه

التسمية بهذا المفهوم الذي وجده الأوروبيون في كتاب الفارابي لم يسبق مجيئها فيما قبل ذلك التاريخ في نص يوناني أو لاتيني أو أي نص آخر، وبما أن هذه الموضوعات العامة التي ذكرها الفارابي كأقسام هامة لعلم اللسان هي التي سيعالجها الـ linguistics في عصرنا الحاضر فلا نظن أنه يوجد لفظ أصلح لتأدية المفهوم الحديث من هذا الذي انطلق منه أصحاب الـ "linguistics" أنفسهم⁽¹⁸⁾. وفي تبريره هذا إثبات لسبق العلماء العرب في وضع مصطلح علم اللسان وفي تحديد موضوعاته وأقسامه.

ومن تبنيه لمصطلحاتهم أيضا أنه اختار مصطلح (البُنْيوية) المنسوب إلى (البنية) وفضله على كلمة (بنوية) الشائعة عند اللغويين العرب المحدثين لوصف مناهج المدارس الملقبة Structuraliste، ووضح سبب اختياره لهذه اللفظة بقوله: «اتبعنا في هذه النسبة رأي يونس بن حبيب النحوي الذي يقول في ظبية ظبوي وهو أخف من ظبي ووجهه الخليل»⁽¹⁹⁾.

أشاد بجهودهم اللغوية ورأى أن جل ما أثبتوه قد أقره العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم وأن نظرة الخليل وسيبويه إلى اللسان هي أقرب إلى المفهوم العلمي الحديث فيقول متحدثا عن العلامة العدمية: «هي عند العرب أصل مهم من أصولها المنهجية لا بالنسبة إلى اللغة فقط بل بالنسبة إلى جميع العلوم الدقيقة والتجريبية، وهي مفهوم رياضي ونرجح أن الخليل هو أول من استخرجه من مفهوم الصفر بعد أن أدرك دوره في علم العدد فطبقه على علوم العربية وبالخصوص النحو والعروض»⁽²⁰⁾.

ورأى أن العرب لم يكتفوا في بناء أصول علومهم على استقرار النصوص المكتوبة مثل القرآن الكريم بل تعدوا ذلك إلى ما يمكن مشاهدته مباشرة مثل قراءات القرآن وإنشاد الشعر الجاهلي والشعر الأموي وبالخصوص كلام فصحاء العرب، وأن هذا ليس من الفيلولوجية الغربية التي تكتفي بدراسة النصوص القديمة، وما قام به العرب القدماء من دراسة للأحداث اللغوية على ما هي عليه في زمان ظهورها هو ما يقوم به علماء اللسانيات اليوم لمعرفة أسرار اللغات⁽²¹⁾.

قد ميز العرب بين المعنى والفائدة فقد قالوا بأن لابد لكل كلام غير محال من معنى يدل عليه ولكنه وإن كان ينبغي أن يفيد في الأصل فقد يكون غير مفيد أي غير حامل لفائدة = لخبر يجهله السامع وذلك، مثل: «النار المحرقة» مثال مشهور في (النحو العربي) فإن قيل هذا لمن اختبر خاصية النار المحرقة فإن هذا الكلام وإن كان ذا معنى إلا أنه لا يأتي بشيء جديد بالنسبة إلى المخاطب. ولهذا أهمية عظيمة جدا لأنه الأساس الذي بُنيت عليه نظرية الإفادة الحديثة théorie de l'information⁽²²⁾.

وهو يتحدث عن الحروف الصوتية والحروف الخطية يجري مقارنة بين المصطلحين عند الأوروبيين وعند العرب فيقول: «أما علماء أوروبا قديما فكانوا يستعملون الحرف الخطي caractère الحرف الصوتي و Lettre

لفظتين مختلفين كما في الفرنسية ولما صارت الأولى تلتبس في الاستعمال بالثانية وضعوا كلمة جديدة لمعنى الأولى فقالوا *phonème* عوض *Lettre* .

أما العرب قديما فما كان يشتبه عليهم الأمر، وكلما أراد اللغوي منهم الجانب الخطي نبه على ذلك وقال مثلا أما صورة الحرف في الخط، أو هذا موجود لفظا وخطا، ولهم تمييز آخر فقد استعملوا للدلالة على اسم الحرف كالباء والميم والياء مثلا لفظة الهجاء⁽²³⁾.

خاتمة:

نستخلص من خلال هذه الدراسة أن الحركة العلمية اللغوية اللسانية التي ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي في بلاد الغرب قد وجدت لها صدى في البلاد العربية تزعمها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حاج صالح - رحمه الله - تلقى علومًا متنوعًا باللغتين العربية واللغة الفرنسية على يد مجموعة من العلماء الذين لهم باعٌ طويل في العلوم والمعارف، فتكونت له ملكة فكرية وأصبح موسوعةً علمية في كلِّ الميادين، وكان معجبا بأفكار علماء اللغة العرب الأفاضل القدامى، وأشاد بجهودهم أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وأبو علي الفارسي، وابن جني، ناقدا بصيرًا، يقبل ويردُّ ويرجِّح ويضعف، حتى بلغ بذلك غايةً كبرى في مجال اللسانيات الحديثة.

وهذا ما جعله يحظى بقيمة علمية مميزة، وما جعل تلاميذه يحلقون حوله ويلازمونه، ويشهدون له على تبحره وإلمامه الشمولي بأطراف المعرفة الإنسانية، فكان من العلماء العاملين متميزا بأعماله التي فاقت حدود وطنه فأقر لها العدو قبل الصديق، واعترف بها علماء المشرق ولقبه: بقطب علماء المغرب.

وتتجلى مكانة عبد الرحمن حاج صالح العلمية في تأليف عدّة كتب في علوم اللغة العربية واللّسانيّات العامة، منها معجم علوم اللّسان، وبحوث ودراسات في علوم اللّسان، والسماع اللّغويّ عند العرب ومفهوم الفصاحة، وعلم اللّسان العربيّ وعلم اللّسان العام (بالفرنسيّة في مجلّدين)، واهتمام العلماء اللغة (مجال اللسانيات) به منذ عصر المؤلّف إلى يومنا هذا حتى انك لا تجد كتابا لسانيا ألف بعده إلا وفيه نقول منه وإحالات عليه، ويزيد من قيمة مؤلفاته اشتماله على نصوص من كتب لغوية.

فأعمال الرجال أفضل شاهد من أقوالهم، وما تركوه لنا من أفكار قيمة مازالت تجنى ثمارها حتى اليوم. فما أحوج طلابنا أن يتخذوه نموذجا في طلب العلم.

المصادر والمراجع

1. ابن الأنباري نزهة الألباء، طبع دار النهضة مصر تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
2. ابن جني الخصائص ، طبعة دار الكتب المصرية.
3. ابن جني تصريف المازني، طبعة مطبعة مصطفى الحلبي.
4. أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، طبع مكتبة نهضة مصر.
5. أبو حيان التوحيدى الإمتاع والمؤانسة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
6. أبو علي الفارسي لعبد الفتاح شلي طبعة مكتبة نعضة مصر.
7. أحمد محمد قدور ، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين . الطبعة الأولى . 1419هـ 1998 - مدار الفكر دمشق سورية.
8. تمام حسان، الأصول دراسة إبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. نحو فقه لغة. بلاغة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982 .
9. الزبيدي طبقات النحويين واللغويين، طبعة الخانجي.
10. سيويه أبي بشر عمرو بن قنبر 180 هـ الكتاب تح و شر عبد السلام محمد هارون.
11. سيويه مقدمة كتاب أبي بشر عمرو بن قنبر 180 هـ تح و شر عبد السلام محمد هارون
12. السيرافي أخبار النحويين البصريين، مطبعة بيروت لبنان.
13. عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، اتحاد الجامعات العربية، ندوة تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية.
14. عبد الرحمن الحاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، وقائع ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ط1، دار الفكر الإسلامي، المغرب، 1987.
15. غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق الطبعة الثانية 2000م.
16. فهرست ابن النديم المطبعة الرحمانية بمصر.
17. الفهرست لابن النديم
18. المحكم في نقط المصاحف للداني، طبع دمشق،
19. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
20. مهدي المخزومي، عبقرى من البصرة، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان - الطبعة الثانية 1406 هـ / 1986 م.
21. مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص 51.
22. مجلة اللسانيات العدد الثامن سنة 2003 ص 12 من القسم الفرنسي الانجليزي.
23. مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص 51.

الهوامش:

1. الدكتور غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق الطبعة الثانية 2000 م ص 34.
2. الدكتور أحمد محمد قدور، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، ط/1 1419 هـ - 1998 مدار الفكر دمشق سورية ص 85.
3. فهرست ابن النديم المطبعة الرحمانية بمصر ص 64.
4. الدكتور مهدي المخزومي، عبقرى من البصرة، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط/2، 1406 هـ/ 1986 م.
5. ينظر مجلة اللسانيات في أعدادها الصادرة بين سنة 1971 وسنة 1974 بمعهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر تحت إشرافه. والعدد الثامن ص 37 - 39.
6. الدكتور تمام حسان، الأصول دراسة إبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. نحو. فقه لغة. بلاغة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982 ص 271.
7. يراجع: مقدمة لسان العرب لابن منظور.
8. الروم حركة مختلصة ضعيفة.
9. أما الإشمام فهو أن تذيق الحرف الضمة أو الكسرة بحيث لا تكاد تُسمعُ وإنما تُرى في حركة الشفة، فهو أقل من الروم همسا وخفة.
10. المحكم في نقط المصاحف للداني ص 6.
11. الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، 131/1.
12. مجلة اللسانيات العدد الثامن سنة 2003 ص 12 من القسم الفرنسي الانجليزي. ومجلة اللسانيات المجلد الثاني سنة 1972 ص 2.
13. المصدر نفسه ص 43.
14. مجلة اللسانيات العدد الرابع 1973 ص 56 - 57.
15. المصدر نفسه ص 51.
16. الدكتور تمام حسان، الأصول دراسة إبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. نحو. فقه لغة. بلاغة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982 ص 271.
17. مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص 52.
18. مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص 52.
19. مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص 38.
20. المصدر نفسه ص 38.
21. المصدر نفسه ص 48.
22. مجلة اللسانيات المجلد الثاني سنة 1972 ص 11.
23. نفسه ص 26.